﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام .. ليصفى الجدل والتشكيك الذى أحدثه اليهود عند تغيير القبلة .. واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرفة بدلا من بيت المقدس .. كذلك الجدل الذى أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتى نبى إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت .. فيقول الحق جل جلاله : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » .. ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم .. واذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط .. أما إذ فهى ظرف فقط .. وقوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » .. معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك .. لأن الابتلاء هو إمتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر .. فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذى ابتلى هو الله سبحانه .. هو

الرب . . والرب معناه المربي الذى يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يمتحن المربي من يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد . . كأن تقول مثلا محمد وتسكت . . وفى هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة . . والكلمة المرادة فى هذه الآية هى التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . . فكأن التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدى مطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التى تلقاها إبراهيم من ربه . . نقول لهم ان هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبى الأنبياء . . إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمل الرسالة . . أى لابد أن يكون الابتلاء كبيرًا . . ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة فى سورة التوبة وهى قوله تعالى :

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبدالله بن عباس . . وعشرة ثانية فى سورة المؤمنون . فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ ﴾

(سورة المؤمنون)

وبعد ذلك قال : « أولئك هم الوارثون » .

وفى سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ㉟ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى سورة المعارج يقول :

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ㉒ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ㉓ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ
㉔ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ㉕ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ㉖ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ

رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة المعارج)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا ولا تفعل كذا .. وابتلاه بأن ألقى فى النار وهو حى فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها .. وكونه يلقى فى النار ولا يبالى يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا .. وأما إلى الله فعلمه بحالى يغنيه عن سؤالى .. وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله .. يقول الحق :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

أى وَفَّى كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله .. لقد نجح إبراهيم عليه السلام فى كل ما ابتلى به أو اختبر به .. والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده .. ماذا كافأه الله به ؟ قال :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماما للبشر .. والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور .. استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هى الذرية ؟ هى النسل الذى يأتى والولد الذى يجىء .. لأنه يحب استطراق الخير على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم فى الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون .. ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده .. حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدى بهم إلى نعيم لا يزول .. ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هى تقريع لليهود .. الذين تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكأن إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية .. ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : « لا ينال عهدى الظالمين » مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتى من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن العجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين .. الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان .. وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة فى ذرية هارون وليس فى ذرية موسى .. والرسالة ليست ميراثا ..

وقوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » . . فكأن عهد الله هو الذى يجذب صاحبه أى هو الفاعل . . نأتى بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون . . بنوة الأنبياء غير بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . . ولو رجعنا إلى قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلى السماء وقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾

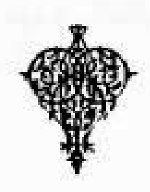
(من الآية ٤٥ سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . . ولولا أن الحق سبحانه قال لنا « إنه عمل غير صالح » . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . . ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه بسبب « إنه عمل غير صالح » .



﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ
إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن
طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

وضحت لنا الآية التى سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام .. بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديات الحياة .. أنتم تدعون انكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم .. إذن فأنتم غير مفضلين عليهم .. فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة .. نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .. تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة .. بيت مأخوذ من البيتوتة وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك .. ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هى المكان الذى يستريح إليه كل خلق الله .. ومثابة يعنى مرجعا تذهب إليه وتعود .. ولذلك فإن الذى يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يحب أن يرجع مرات ومرات .. إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة وجوده فى بيت ربه .. وأتحدى أن يوجد شخص فى بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته .. تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما فى صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله فى قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت .. ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة ..

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفى من عقل الحاج وقلبه .. لأن الحجيج فى

بيت ربهم . . وكلما كربهم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفئدة وليست أجساما وتهوى أي يلقون أنفسهم إلى البيت . . والحج هو الركن الوحيد الذي يحتال الناس ليؤدوه . . حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدي الفريضة . . والذي يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات .

إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله . . ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة .

وقوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » . . أمنا يعني يؤمّن الناس فيه . . العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجاج بيت الله الحرام . . يلقى أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج .

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتي إلى مكان ويجعله آمنا . . ويأتي إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام والصفاء يمتنعون عن القتال .

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا . . إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمّن من فيه . . الذي يطيع ربه يؤمن من في البيت والذي لا يطيعه لا يؤمنه . . عندما يحدث هياج من جماعة في الحرم اتخذته ستاراً لتحقيق أهدافها . . هل يتعارض هذا مع قوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » . . نقول لا . .

إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كتشريع . . إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه .

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » . . وهنا نقف قليلا فهناك مَقام بفتح الميم ومُقام بضم الميم . . قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأحزاب)

مَقام بفتح الميم إسم لمكان من قام . . ومُقام بضم الميم إسم لمكان من أقام . . فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مُقام بضم الميم . . وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام بفتح الميم . . إذن فقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » بفتح الميم اسم المكان الذى قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذى وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ لأنهم كانوا يتحرجون عن الصلاة فيه . . فالذى يصلى خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة . . وكان المسلمون يتحرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذى فيه مقام إبراهيم . . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك . . ولما رأى عمر مكانا فى البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت . . فنزلت الآية الكريمة : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى . . فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم فى مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة . . وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حيثية الإتمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونتفهمها . . فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من إلبيت . . والترتيب الزمنى للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود فى موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة ؛ فقصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والاعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . . ومادامت مهمة إبراهيم هى رفع القواعد فكأن هناك طولا وعرضا للبيت وان إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذى غمر الأرض فى عهد نوح فأخفى معالمه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هى البيت ولكنها هى المكين الذى يدلنا على مكان البيت . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » . . بمعنى ان إبراهيم هو الذى بنى البيت . . نقول لهم ان البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم اقتصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . . من يصلى على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجو الكعبة . . ومن يصلى فى الدور الأسفل يصلى أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها

إسماعيل وتركهما فى بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة فى ذلك الوقت . . ذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلها الرضيع :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعنى أن البيت كان موجودا وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه فى بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التى تدل الناس عليه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء فى القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت والقول إنه وضع للناس والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضعه وحدده ، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفى أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر . . ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف . . فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحايل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود فى مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذى كان يقف عليه ابراهيم به حفر على شكل قدميه . . وهما بين قائل أن الحجر لان تحت قدمى إبراهيم من خشية الله . . وبين قائل إن إبراهيم هو الذى قام بحفر مكان فى الحجر على هيئة قدميه . . حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعلى القواعد من البيت كان توازنه محفوظا .

وقوله تعالى : « طهرا بيتى » دليل على أن البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح وألقيت المخلفات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : « الطائفين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشىء . . ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافة لأنهم يطوفون فى الشوارع فى أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

وهذه هى قصة الحديقة التى منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها . . أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها . . فالطائف هو الذى يطوف . . « والعاكفين » هم المقيمون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه . . وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد فى الأرض حتى قيام الساعة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . . ومادام الله قد جعله أمنا فما هى جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن فى البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلداً آمنا » . . أى يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه